البلاغة

علم المعاني

التعريف والتنكير

مدرس المادة

م. رقيّة محمّد أمين البغداديّ

محاضرة: الدلالات البلاغية للتعريف والتنكير

يعد باب "التعريف والتنكير" من أدق وأعمق أبواب علم المعاني. القاعدة الذهبية هنا تنص على : **إذا تعلق الغرض بتفهيم المخاطَب وارتباط الكلام بشيء معين، فالمقام يقتضي "التعريف"، وإذا لم يتعلق الغرض بمعين، فالمقام يقتضي "التنكير."**

غير أن البلاغة العربية (وهي قضايا عقلية بالدرجة الأولى) تخرج بنا عن هذه الاستخدامات الأصلية لأغراض ونكات بديعة نُفصلها في مبحثين رئيسيين:

المبحث الأول: التعريف وأغراضه البلاغية

المعارف في اللغة العربية سبعة أنواع، ولكل منها مقام وأسرار عند العدول إليها:

١- التعريف بالضمير

الأصل في الضمير أن يوضع باختصار ليدل على (المتكلم، أو المخاطب، أو الغائب) .والأصل في المخاطب أن يكون معيناً مشاهداً .لكن البلاغة تخرج بنا عن هذا الأصل لأغراض:

•**استحضار الغائب في القلب** :كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فالله عز وجل لا يُرى بالعين، لكنه حاضر ومستحضر في قلب المؤمن تعظيماً، فخوطب بضمير الحاضر.

•**تعميم الخطاب لغير معين** :أن تخاطب شخصاً بضمير "أنت" ولا تقصده بعينه، بل تقصد كل من يتأتى منه الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾، وقول المتنبي:

إذا أَنتَ أَكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ... وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا.

•**ضمير الشأن (لتعظيم الأمر)** :وهو ضمير (إنه، إنها) لا يعود على كلام سابق، بل يفسر بجملة بعده لبيان خطورة الشأن وعظمته، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ﴾ المعنى: إن الشأن

العظيم والقضية المهمة هي أن من يتق ويصبر يفلح .وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾.

٢- التعريف بالعَلَم

الأصل إيراد العلم لإحضار مسماه في ذهن السامع باسمه الخاص (مثل: إبراهيم، زيد) .ومن أغراضه البلاغية:

•**التعظيم والمدح** :باستخدام الألقاب والكنى الرفيعة، مثل: "ركب سيفُ الدولة" أو "نور الهدى."

• **الإهانة والتحقير** :مثل: "ذهب صَخْر" أو من يُسمى "تأبط شراً" أو "أبو جهل."

•**التفاؤل والتشاؤم** :التفاؤل كاستخدام اسم "سُرور"، والتشاؤم كاستخدام أسماء مثل "حرب" أو "صعب."

•**التبرك والتلذذ** :التبرك كقولك :محمدٌ أشرف الأعراب والعجم، والتلذذ بتكرار الاسم كما في قول الشاعر: **بالله يا ظبيات القاع قلن لنا... ليلايَ منكن أم ليلى من البشرِ.**

•**الكناية عن معنى يصلح اللفظ له** :كقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، فلم يُذكر اسمه الحقيقي، بل كنيته "أبو لهب" كناية عن مصيره؛ لأنه سيكون حطباً ووقوداً لجهنم تتولد منه النار كما يتولد الابن من أبيه.

٣-التعريف باسم الإشارة

يُؤتى به إذا تعين طريقاً وحيداً لإحضار المعنى، كأن تشير لشيء لا تعرف اسمه (أعطني هذا) . ومن أغراضه البلاغية:

•**تمييز المشار إليه أكمل تمييز (للمدح أو الذم)** :كقول الشاعر يمدح:

هَذا أَبو الصَقرِ فَرداً في مَحاسِنِهِ، فاستخدام الإشارة يجسده أمامك ليزيد من رفعة المدح.

وقول الفرزدق في حق الامام زين العابدين (ع):

هَذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأَتَهُ وَالبَيْتُ يعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

هذا ابنُ خَيرِ عِبادِ الله كُلّهِمُ، هذا التّقيّ النّقيّ الطّاهِرُ العَلَمُ

•**إظهار الاستغراب والتعجب** :كقول ابن الراوندي الملحد مستغرباً من رزق الجاهل وحرمان العاقل:

كَم عاقِلٍ عاقِلٍ أَعيَت مَذاهِبُهُ... وَجاهِلٍ جاهِلٍ تَلقاهُ مَرزوقا... هَذا الَّذي تَرَكَ الأَوهامَ حائِرَةً.

•**بيان الحال في القُرب والبُعد (للتعظيم أو التحقير)** :للتعظيم بالبعد كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾، وللتعظيم بالقرب: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ .وللتحقير بالقرب: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾، أو بالبعد: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.

•**التنبيه على أن المشار إليه يستحق ما بعده** :كقوله تعالى بعد ذكر صفات المتقين: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي أنهم لالتزامهم بتلك الصفات استحقوا هذا الهدى والفلاح.

٤-التعريف بالاسم الموصول

يعد من أدق مباحث المعارف وأكثرها أسراراً .ومن نكاته:

•**التعليل** :كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾، فالاسم الموصول يشعر بأن علة دخولهم الجنة هي إيمانهم وعملهم الصالح.

•**التنبيه على خطأ المخاطب (بأسلوب أدبي)** :كقول الشاعر:

إِنَّ الَّذينَ تَرَونَهُم إِخوانَكُم... يَشفي غَليلَ صُدورِهِم أَن تُصرَعوا

لينبههم أن اتخاذهم لهؤلاء كإخوة هو خطأ فادح.

•**التفخيم والتهويل** :كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، أبهم الأمر بـ(ما) ليذهب العقل كل مذهب في تصور عظمة العذاب الذي لا تفي العبارة بوصفه .وكقول الفرزدق:

إِنَّ الَّذي سَمَكَ السَماءَ بَنى لَنا... بَيتاً دَعائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطوَلُ ليعظم شأن المحكوم به.

•**التهكم والاستهزاء** :كما حكى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

•**إخفاء الأمر عن غير المخاطب** :كقولك: "وأخذتُ ما جادَ الأميرُ بهِ"، لتخفي مقدار العطاء عن الحاضرين.

•**استهجان التصريح بالاسم** :كقوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾، فلم يصرح القرآن باسم (زليخا) استهجاناً للفعل وصوناً للكلام.

٥-التعريف المحلى بـ (أل) **(غير داخلة في الامتحان للاطلاع فقط)**

•**أل الجنسية (الحقيقة)** :لبيان الحقيقة والماهية بغض النظر عن الأفراد، مثل: "الإنسان حيوان ناطق."

•**أل العهدية** :وتكون للعهد **الذِّكري** (ما تقدم ذكره صراحة): ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ .أو العهد **الحضوري** :﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ .أو العهد **الذهني/العلمي** (حاضر في ذهن المخاطب دون ذكره): ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

•**أل الاستغراقية** :وتشمل جميع أفراد الجنس، ويصح إحلال كلمة (كُل) مكانها ويجوز الاستثناء منها: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

•**إفادة القصر (الحصر)** :إذا وقع المحلى بـ (أل) خبراً، مثل: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾، أي حصرت المغفرة التامة به سبحانه وتعالى.

٦-التعريف بالإضافة

ويُؤتى به هرباً من إطالة التعداد (مثل: أجمع أهلُ الحق)، أو هرباً من تبعة تقديم شخص على آخر فتقول (حضر أمراءُ الجند) بدلاً من تعدادهم بالاسم .ومن نكاته:

•**التعظيم** :إما تعظيم المضاف (كتاب السلطان)، أو المضاف إليه (هذا خادمي)، أو المتكلم نفسه (أخو الوزير عندي).

•**التحقير** :مثل (هذا ابن اللص).

•**الاختصار لضيق المقام** :كقول الشاعر المسجون :*هَوايَ مَعَ الرَكبِ اليَمانينَ مُصعِدُ*، استخدم (هواي) بدلاً من (الذي أهواه) لأن مقام السجن يناسبه الإيجاز وضيق الصدر.

المبحث الثاني: التنكير وأغراضه البلاغية

الأصل في النكرة أن المتكلم لا يعلم للمحكي عنه جهة تعريف (لا اسم ولا وصف) كقولك: "جاء رجل ."لكن البلاغة توظف التنكير لغايات جليلة:

•**إفادة الوحدة** :﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ (أي رجل واحد).

•**إفادة النوع** :﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ أي نوع خاص من الحياة، وهو مجرد البقاء مهما كان ذليلاً.

•**التكثير (في الكميات)** :كأن تقول: "لفلان مالٌ" أي مال عظيم وكثير.

•**التقليل (في الكميات)** :كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، فالتنكير في (رضوان) يفيد التقليل، أي: أن قليلاً من رضوان الله هو أكبر من كل هذه الجنات.

•**التعظيم (في المكانة والشأن)** :كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، التنكير هنا يفيد أنه سلام عظيم جداً.

•**التحقير (في المكانة)** :كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾، التنكير لبيان حقارة وضعف أصل الإنسان.

•**الجمع بين التعظيم والتقليل معاً في بيت واحد** :كما في قول الشاعر:

لَهُ حاجِبٌ عَن كُلِّ أَمرٍ يَشينُهُ ... وَلَيسَ لَهُ عَن طالِبِ العُرفِ حاجِبُ

كلمة (حاجب) الأولى نكرة للتعظيم؛ أي له مانع عظيم عن فعل القبائح. و(حاجب) الثانية للتقليل والتحقير؛ أي ليس دونه أقل وأصغر مانع يمنع طالبي المعروف من الوصول إليه.

•**العموم في سياق النفي** :كقوله تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ﴾، النكرة هنا تفيد العموم المطلق.

•**إخفاء الأمر (للحماية)** :كقولك: "قال رَجُلٌ إنك انحرفت عن الصواب"، تخفي اسمه نكرة حمايةً له من أذى المخاطب.

•**قصد التجاهل (للاستهزاء)** :كما حكى القرآن عن الكفار: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾، وهم يعرفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم عز المعرفة، لكنهم نكّروه استهزاءً وتجاهلاً.

خاتمة: إن البلاغة هي "منطق لغوي عقلاني" وليست مجرد قواعد جافة؛ فكل تغيير من تعريف إلى تنكير، أو استبدال اسم بضمير، يحمل وراءه نيّة عميقة في نفس المتكلم (تعظيماً، أو تحقيراً، أو تهويلاً، أو أدباً). دراستكم لهذه الاعتبارات هي مفتاحكم لتذوق أسرار الإعجاز البياني في القرآن الكريم وروائع الأدب العربي.